

تفسير القرآن الكريم

٢٢ سورة الحجر ١٣-١٠-١٤٠

دراسات الأستاذ:
مهدي الهادي الطهراني

سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ
(١)

سورة الحج

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا
مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾

سورة الحجر

ذُرُّهُمُ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُنْهَمُّ
الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

سورة الحجر

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَهَا
كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَ مَا
يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾

سورة الحجر

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ
الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾

سورة الحجر

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَأِكَةِ إِن كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾

سورة الحجر

مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ
مَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ ﴿١﴾

سورة الحج

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

سورة الحجر

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِبَعِ
الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

سورة الحجر

كَذَلِكَ نَسُكُّهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ
(١٢)

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ (١٣)

سورة الحجر

وَأَوْفَقْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ
فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾

لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ
نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

سورة الحجر

وَ لَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ
زِينَاتٍ لِّلنَّازِحِينَ ﴿١٦﴾

سورة الحجر

وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ
(١٧)

إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ
شَيْهَابٌ مُبِينٌ (١٨)

سورة الحجر

وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَ الْأَقْيَنَا فِيهَا
رَوَاسِي وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾

سورة الحج

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَ مَن
لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾

سورة الحجر

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ
وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ
(١١)

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• و قوله «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ»
 فخرائن الله مقدراته، لأنه تعالى يقدر ان
 يوجد ما شاء من جميع الأجناس، فكأنه قال:
 و ليس من شيء إلا و الله تعالى قادر على ما
 كان من جنسه الى ما لا نهاية له.

وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ

• و قوله «وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» اى
 لَيْسَتْ اَنْزَلْ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءَ «إِلَّا بِقَدَرٍ
 مَّعْلُومٍ» اى مَا يَصْلِحُهُمْ وَ يَنْفَعُهُمْ دُونَ مَا
 يَفْسِدُهُمْ وَ يَضُرَّهُمْ، حَسَبَ مَا سَبَقَ فِي
 عِلْمِي.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» الخزائن جمع خزانة و هي مكان خزن المال و حفظه و ادخاره، و القدر بفتح تحتين أو فتح فسكون مبلغ الشيء و كميته المتعينة.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• و لما كانت الآية واقعة في سياق الكلام في الرزق الذي يعيش به الإنسان و الحيوان كان المراد بالشيء الموصوف في الآية النبات و ما يتبعه من الحبوب و الثمرات فالمراد بخزائنه التي عند الله و هو ينزل بقدر معلوم المطر النازل من السماء الذي ينبت به النبات فيأتي بالحبوب و الأثمار و يعيش بذلك الإنسان و الحيوان هذا ملخص ما ذكره جمع من المفسرين.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• ولا يخفى عليك ما فيه من التكلف فتخصيص ما في قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ» من العموم وحصره في النبات من تخصيص الأكثر من غير شك و المورد لا يخصص و أردى منه تسمية المطر خزائن النبات و ليس إلا سببا من أسبابه و جزء من أجزاء كثيرة يتكون النبات بتركيبها الخاص، على أن المطر إنما تتكون حينما ينزل فكيف يسمى خزائنه و ليس بموجود و لا أن الذي هو خزائنه موجود فيه.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

- و ذكر بعض المفسرين أن المراد بكون خزائن كل شيء عند الله سبحانه شمول قدرته المطلقة له.
- فله تعالى من كل نوع من أنواع الأشياء كالإنسان و الفرس و النخلة و غير ذلك من الأعيان و صفاتها و آثارها و أفعالها مقدورات في التقدير غير متناهية عددا لا يخرج منها دائما من التقدير و الفرض إلى التحقق و الفعلية إلا قدر معلوم و عدد معين محدود.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• و على هذا فالمراد من كل شيء نوعه لا شخصه كالإنسان مثلا لا كزيد و عمرو، و المراد من القدر المعلوم الكمية المعينة من الأفراد و المراد من وجود خزائنه و وجوده في خزائنه وجوده بحسب التقدير لا بحسب التحقق فيرجع إلى نوع من التشبيه و المجاز.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• وأنت خير بأن **فيه** تخصيصاً للشيء من غير مخصص، و **فيه** قصر للقدر في العدد من غير دليل، و القدر في اللغة قريب المعنى من الحد و هو المفهوم من سياق قوله تعالى: «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا»: الطلاق: ٣ و قوله: «وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ»: الرعد: ٨ و قوله: «إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ»: القمر: ٤٩ و قوله: «وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا»: الفرقان: ٢ إلى غير ذلك.

• و **فيه** إرجاع الكلام إلى معنى مجازى استعارى من غير موجب مع ما **فيه** من ورود الخزائن بصيغة الجمع من غير نكتة ظاهرة.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• و ذكر بعض معاصري المفسرين وجها آخر و هو أن المراد **بالخزائن** العناصر المختلفة التي تتألف منها الأرزاق و غيرها و قد أعد الله منها في عالمنا المشهود كمية عظيمة لا تنفذ بعروض التركيب و الأسباب الكلية التي تعمل في تركيب المركبات كالضوء و الحرارة و الرياح الدائمة المنظمة و غيرها التي تتكون منها الأشياء مما يحتاج إليه الإنسان في إدامة حياته

و غيره.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص: ١٤١

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

- فكل من هذه الأشياء مدخرة بأجزائها و القوى الفعالة فيها فى تلك الخزائن غير القابلة للنفاد من جهة عظمة مقداره و من جهة ما يعود إليه من الأجزاء الجديدة بانحلال تركيب المركبات بموت أو فساد و رجوعها إلى عناصرها الأولية كالنبات يفسد و الحيوان يموت فيعود عناصرها بانحلال التركيب إلى مقارها و يتسع بذلك المكان لكيونة نبات و حيوان آخر يخلفان سلفهما.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• فالضوء و خاصة ضوء الشمس الذى يعمل الليل و النهار و الفصول الأربعة و يربى النبات و الحيوان و سائر المركبات و يسوقها إلى غاياتها و مقاصدها من خزائن الله تعالى و الرياح التى تلقح النبات و تسوق السحب و تنقل الأهوية من مكان إلى مكان و تدفع فاسد الهواء و تجرى السفن خزائنه أخرى، و الماء النازل من السماء الذى تحتاج إليه المركبات ذوات الحياة فى كينونتها و بقائها خزائنه أخرى، و كذلك العناصر البسيطة التى تتركب منها المركبات كل منها خزائنه تنزل من مجموعها أو من عدة منها الأشياء المركبة، و لا ينزل قط إلا عدد معلوم من كل نوع من غير أن تنفذ به الخزائن.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• و على هذا فمراد الآية بالشىء هو نوعه لا شخصه كما تقدم فى الوجه الأول و المراد بخزائنه مجموع ما فى الكون من أصوله و عناصره و أسبابه العامة المادية و مجموع الشىء موجود فى مجموع خزائنه لا فى كل واحد منها و المراد بنزوله بقدر معلوم كينونه عدد محدود منه فى كل حين من غير أن يستوفى عدد جميع ما فى خزائنه.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• وهذا وجه حسن في نفسه تؤيده الأبحاث العلمية عن كينونة هذه الحوادث و تصدقه آيات كثيرة متفرقة في الكتاب العزيز كقوله في الآية التالية: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ» و قوله: «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ»: الأنبياء: ٣٠ و قوله: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ»: إبراهيم: ٣٣ و قوله: «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»: البقرة: ١٦٤ إلى غير ذلك من الآيات.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• **لَكِنَّ الْآيَةَ** وَ هِيَ مِنْ **آيَاتِ الْقَدْرِ** كَمَا يُعْطِيهِ سِيَاقُهَا
 تَابِي الْحَمَلِ عَلَيْهِ كَمَا تَابِي عَنْهُ **أَخْوَاتُهَا** وَ كَيْفَ يَحْمَلُ
 عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَوَخَّلِقْ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْرُهُ تَقْدِيرًا»؟: الْفَرْقَانُ:
 ٢ وَ قَوْلُهُ: «الَّذِي خَلَقَ فِيسْوَى وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى»:،
 الْأَعْلَى: ٣ وَ قَوْلُهُ: «وَكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ»،: الرَّعْدُ:
 ٨ وَ قَوْلُهُ: «إِلَّا أَمْرَاتِهِ قَدَرْنَا بِهَا مِنْ الْغَابِرِينَ»،: النَّمْلِ:
 ٥٧ وَ قَوْلُهُ: «مَنْ أَى شَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ نَظْفِيهِ خَلَقْتَهُ
 فَقَدْرَهُ»،: عَبَسَ: ١٩ وَ قَوْلُهُ: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»
 إِلَى آخِرِ السُّورَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

- على أنه يرد عليه بعض ما أورد على الوجهين السابقين كتخصيص عموم «شيء» من غير مخصص و غير ذلك.
- و الذي يعطيه **التدبر** في الآية و ما يناظرها من الآيات الكريمة أنها من **غرر كلامه تعالى** تبين ما هو أدق مسلكا و أبعد غورا مما فسروها به و هو **ظهور الأشياء بالقدر و الأصل الذي لها قبل إحاطته بها و اشتماله عليها***.
- * أي أصالة الوجود بالمعنى الذي عرف في الحكمة المتعالية (مهدى الهادوى الطهراني)

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• و ذلك أن ظاهر قوله: «وإن من شيء» على ما به من العموم بسبب وقوعه في سياق النفي مع تأكيده بمن، كل ما يصدق عليه أنه شيء من دون أن يخرج منه إلا ما يخرج منه نفس السياق و هو ما تدل عليه لفظه «نا» و «عند» و «خزائن» و ما عدا ذلك مما يرى و لا يرى مشمول للعام.*

• * فموضوع الآية يشمل الممكنات كلها و لا يشمل الواجب تعالى (مهدى الهادوى الطهراني)

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• فـشخص زيد مثلاً و هو فرد إنسانى من الشىء و نوع من الإنسان أيضاً الموجود فى الخارج بأفراده من الشىء و الآية تثبت لذلك خزائن عند الله سبحانه فلننظر ما معنى كون زيد مثلاً له خزائن عند الله؟.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• و الذي يسهل الأمر فيه أنه تعالى يعد هذا الشيء المذكور نازلاً من عنده و النزول يستدعي علواً و سفلاً و رفعةً و خفضةً و سماءً و أرضاً مثلاً و لم ينزل زيد المخلوق مثلاً من مكان عال إلى آخر سافل بشهادة العيان فليس المراد بإنزاله إلا خلقه لكنه ذو صفة يصدق عليه النزول بسببها، و نظير الآية قوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ»، الزمر: ٦ و قوله: «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ»: الحديد: ٢٥.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• ثم قوله: «وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» يقرن **النزول** و هو **الخلق** بالقدر قرنا لازما غير جائز الانفكاك لمكان الحصر، و الباء إما للسببية أو الآلة أو المصاحبة و المال واحد فكينونة زيد و ظهوره بالوجود إنما هو بماله من القدر المعلوم فوجوده محدود لا محالة، كيف؟ و هو تعالى يقول: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ»،: حم السجدة: ٥٤ و لو لم يكن محدودا لم يكن محاطا له تعالى فمن المحال أن يحاط بما لا حد له و لا نهاية.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• وهذا القدر هو الذي بسببه يتعين الشيء و يتميز من غيره ففي زيد مثلا شيء به يتميز من عمرو و غيره من أفراد الإنسان و يتميز من الفرس و البقر و الأرض و السماء و يجوز لنا به أن نقول ليس هو بعمرو و لا بالفرس و البقر و الأرض و السماء و لو لا هذا الحد لكان هو هي و ارتفع التمييز.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• وكذلك ما عنده من القوى والآثار والأعمال محدودة مقدرة فليس إبصاره مثلا إبصارا مطلقا في كل حال و في كل زمان و في كل مكان و لكل شيء و بكل عضو مثلا بل إبصار في حال و زمان و مكان خاص و لشيء خاص و بعضو خاص و على شرائط خاصة، و لو كان إبصارا مطلقا لأحاط بكل إبصار خاص و كان الجميع له و نظيره الكلام في سائر ما يعود إليه من خصائص وجوده و توابعه فافهم ذلك.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• و من هنا يظهر أن **القدر خصوصية وجود الشيء و كيفية خلقته** كما يستفاد أيضا من قوله تعالى: «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ»: الأعلى: ٣ و قوله: «الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ» طه - ٢٥ فإن الآية الأولى رتبت الهداية و هي الدلالة على مقاصد الوجود على خلق الشيء و تسويته و تقديره، و الآية الثانية رتبها على إعطائه ما يختص به من الخلق، و لازم ذلك - على ما يعطيه سياق الآيتين - كون قدر الشيء خصوصية خلقه غير الخارجة عنه.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• ثم إنه تعالى وصف قدر كل شيء بأنه معلوم إذ قال: «وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» و يفيد بحسب سياق الكلام أن هذا القدر معلوم له حينما ينزل الشيء و لما يتم نزوله و يظهر وجوده فهو معلوم القدر معينه قبل إيجاده،

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

• و إليه يؤول معنى قوله: «و كلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ»: الرعد: ٨ فَإِنْ ظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِمَا لَهُ مِنَ الْمَقْدَارِ حَاضِرٌ عِنْدَهُ مَعْلُومٌ لَهُ فَقَوْلُهُ هُنَا: «عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ» فِي مَعْنَى قَوْلِهِ هَاهُنَا «بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» وَ نَظِيرَ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا»: الطلاق: ٣ أَيْ قَدْرًا لَا يَتَجَاوَزُهُ مَعِينًا غَيْرَ مَبْهُمٍ مَعْلُومًا غَيْرَ مَجْهُولٍ وَ بِالْجُمْلَةِ **لِلْقَدْرِ تَقْدِيمٌ عَلَى الشَّيْءِ بِحَسَبِ الْعِلْمِ وَ الْمَشِيئَةِ وَ إِنْ كَانَ مَقَارِنًا لَهُ غَيْرَ مَنْفَكٍ عَنْهُ فِي وَجُودِهِ.**

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ

- ثم إنه تعالى أثبت بقوله: «عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نَنْزِلُهُ» إلخ، للشيء عنده **قبل نزوله** إلى هذه النشأة و استقراره فيها **خزائن**، و جعل **القدر متأخرا عنها ملازما لنزوله** فالشيء و هو في هذه الخزائن غير مقدر بقدر و لا محدود بحد و هو مع ذلك هو*.
- * قاعدة و حدة الكثير و الواحد في مرتبته تعالى (مهدى الهادوي الطهراني)